الباب العاشر

في ذكر أمور من المفاخر الواقعة بين قبائلهم وما ينجر إلى ذلك

اعلم أن المفاخرات الواقعة بين قبائل العرب كثيرة فلنقتصر على ما ذكره في نهاية الأرب من ذلك، فنقول: من لطيف ما يُحكى في ذلك ما روي عن ابن الكلبي أنه قال: قال كسرى للنعمان بن المنذر يومًا: هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة؟ قال: نعم، قال: فبأي شيء؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية ورؤساء ثم اتصل ذلك بكمال رابع فالبيت من قبيلته فيه وتنسب إليه قال: فاطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا في الحذيفة بن بدر وآل ذي الجدين وآل الأشعث بن قيس بن كِنده فجمع الجميع ومن معهم من عشائرهم وأقعد لهم الحُكَّام والعدول وقال ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قولهم وليصدق فكان حذيفة بن بدر أول متكلم وكان ألسن القوم، فقال: قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم، والأعز الأعظم، ومآثر للضيع الأكرم، فقال من حوله: ولمَ ذلك يا أخا فزارة، قال ألسنا الدعائم التي لا ترام، والأمر الذي لا يضام قيل: صدقت.

ثم قال شاعرهم فقال:

فـزارة بيـت العـز والعـز فـيهم ... فـزارة قـيس حـسب قـيس نـصالها
لهـا العـزة القعـساء والحـسب الـذي ... بنـاه لقـيس في القـديم رجالهـا
فهيهات قد أعي القرون التي مضت ... مـآثر قـيس مجـدها وفعالهـا
وهـل أحـد إن قـر يومًـا يكفـه ... إلى الـشمس في مجـرى النجـوم ينالهـا
فـإن يـصلحوا يـصلح لـذاك جميعهـا ... وإن فـسدوا يفـسد مـن النـاس حالهـا

ثم قام الأشعث بن قيس فقال: قد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر، زحفها الأكبر، وأنا الغيات الكربات، ومعدن المكرمات، قالوا: ولم يا أخا كندة، قال: لأنا رؤساء ملك كندة واستضللنا بإفتائه وتقلدنا منكبه الأعظم، وتوسطنا بحبوحة الأعظم، ثم قام شاعرهم فقال:

إذا قِـست أبيـات الرجـل بيتنـا ... وجـدت لهـا فـضلًا عـلى مـن يفـاخر
فقـال كلنـا لواتّانـا بخطـة ... ينافرنـا فيهـا فـنحن نخـاطر
تعـالوا فقولـوا يعلـم النـاس أينـا ... لـه الفـضل ممـا أورثتـه الأكـابر

ثم قام بسطام الشيباني فقال: قد علمت العرب أنا بنات بيتها الذي لا يزول، ومغرس عزها الذي لا يحول، قالوا: ولِمَ يا أخا شيبان قال: لأنا أدركم للثأر، وأضربهم للملك الجبار، وأقولهم للحكم، والدهر الخضم، ثم قام شاعر فقال:

لعمـري بـسطام أحـق بفـضلها ... وأول بيـت العـز عـز القبائـل
فـسائل أبيت اللعـن عـن عـز قومهـا ... إذا جـد يـوم الفخـر كـل مناقـل
ألـسنا أعـز النـاس قومًـا ونـصرة ... وأضربهـم للكـبش بـين القبائـل
وقـايع عـز كلهـا ربيعـة ... تـذل لهـا عـزا رقـاب المحافـل

إذا ذكـرت لم ينكـر النـاس فـضلها وعـاذ بهـا مـن شرهـا كـل وائـل
وأنـا ملـوك النـاس في كـل بلـدة إذا نزلـت بالنـاس إحـدى النـوازل

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي فقال: قد علمت العرب أنا فرع دعامتها، وقادة زحفها، وقالوا: ولم ذلك يا أخي بني تيم قال: لأنا أكثر الناس عديدًا، وأنجبهم طرًا وليدًا، وأنا أعطاهم للجزيل، وأحملهم للثقيل، ثم قام شاعرهم فقال:

لقـد علمـت أبنـا خنـدف أننـا لنـا العـز قـدمًا في الخطـوب الأوائـل
وأنـا كـرام أهـل مجـد وثـروة وعـز قـديم لـيس بالمتـضائل
فكـم مـنهم مـن سـيد وابـن سـيد أعـز نجيـب ذو فعـال ونائـل

ثم قام قيس بن عاصم السعدي فقال: لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرمات دعائم، وأثبتهم في النائبات مقادم، قالوا: ولِمَ ذلك يا أخي بني سعد، قال: لأنا ادركهم للثأر، وأمنعهم للجار، وأنا لا نتكل إذا حملنا، ولا نرام إذا أحلنا، ثم قام شاعرهم فقال:

لقـد علمـت قـيس وخنـدف أننـا وجـل تمـيم والجميـع لنـا تـرى
بأنـا عـماد في الـبرور وأننـا لنا الشرف الضخم المركب في ال....
وأنـا ليـوس البـاس في كـل مـاذق إذا جـز بـالبيض الجماجـم والكـلا
فمـن ذا اليـوم الفخـر يعـدل عاصمًا وقيـسًا إذا مـرت ألـوف إلى العـلا
فهيهـات قـد أعـي الجميـع فعـالهم وقاموا اليوم الفخر مسعاة من سعى

فقال كسرى: حينئذٍ ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه، وأثنى حباهم، وأعظم صلاتهم، وأثنى ما بهم.